

"سوف يأتي يوم .
يقترّب ويسير بمساره
لن يهان أي شخص
بسبب عرقه أو لونه
سوف يأتي يوم..."

من شعر دان الماغور " سوف يأتي يوم " .

المقدمة

تعتبر وحدة المجتمع الإسرائيلي بكل فئاته، والمكافحة الصارمة لكل أنواع العنصرية وكراهية الآخر لمجرد اختلافه، أساسا هاما لاستمرارية وجود وازدهار دولة إسرائيل كدولة يهودية وديمقراطية. يتناول هذا التقرير الخطوات التي تقوم بها وزارة التربية والتعليم لتعزيز التربية على الحياة المشتركة ومكافحة العنصرية، ولكن لأسفي الشديد، تشير نتائج هذا التقرير لوجود واقع مقلق فيما يتعلق بقلة الأعمال التي تقوم بها وزارة التربية والتعليم في سبيل وحدة المجتمع الإسرائيلي ومن أجل استئصال وباء العنصرية وكراهية الآخر، حيث يفيد التقرير، بأن دولة إسرائيل لا تعمل إلا القليل لاجتثاث ظواهر العنصرية وكره الآخر عند الشباب ولتعزيز الحياة المشتركة.

قامت القيم الأساسية لدولة إسرائيل منذ تأسيسها، على محاربة العنصرية وعلى تحقيق المساواة بين كل مواطني الدولة والحفاظ على كرامة الإنسان لكونه إنسانا، ولهذا المفهوم جذور في المراجع اليهودية: "فخلق الله الإنسان على صورة الله. على صورته خلقه، ذكرا وأنتى خلقهم". (الإصحاح الأول من سفر التكوين، آية 27). ويتخلل وثيقة الاستقلال تعبير واضح لهذه القيم، حيث أقرت أن "دولة إسرائيل... ستدأب على تطوير البلاد لصالح سكانها جميعا؛ ترتكز على دعائم الحرية والعدل والسلام بحسب نبوءات أنبياء إسرائيل، وتحافظ على المساواة التامة بين جميع مواطنيها بالحقوق الاجتماعية والسياسية، بغض النظر عن

دينهم أو عرقهم أو جنسهم؛ تؤمن حرية العبادة والضمير واللغة والتربية والثقافة". وقد أقر قانون أساس: كرامة الإنسان وحرّيته، الصادر عام 1992، رسمياً بحقوق الإنسان ورفع من مكانة حق "كرامة الإنسان" المعيارية لترتقي إلى مستوى الحق الدستوري الذي يغلب على القانون العادي¹. وبات واجب الدولة في محاربة ظواهر العنصرية والكراهية واجبا دستوريا. وكان أهرون باراك، رئيس محكمة العدل العليا سابقاً قد كتب بأحد أحكامه: "العنصرية تمس بكرامة الإنسان وبالمساواة بين البشر. العنصرية تقوض أركان النظام الاجتماعي والتسامح والسلام العام، فهي تناقض جوهر وأسس دولة إسرائيل كدولة يهودية وديمقراطية"².

إن تاريخ الشعب اليهودي يفرض علينا أن نتذكر يوماً النتائج الفظيعة للعنصرية وكراهية الأخر. وقد عبر عن ذلك جيداً قاضي المحكمة العليا تسفي بيرنزون بحكمه حين كتب: "عندما نُفينا من بلادنا وأبعدنا عن أرضنا أصبحنا ضحايا أمم العالم التي قطننا بينها، وبكل الأجيال ذقنا مرارة الاضطهاد والتمييز لمجرد كوننا يهوداً 'تختلف شرائعهم عن باقي الشعوب'. واقتداء بهذه التجربة التعيسة، التي تغلغلت في أعماق وعينا وإدراكنا القومي والإنساني، يمكننا التوقع بأن لا نتبع طرقهم الجاحدة، ومع إحرار استقلالنا في دولة إسرائيل علينا الحذر والاحتراس من أي تمييز أو كيل بمكيالين... في كره الغريب لعنة مزدوجة: فهو يشوه هيئه الشخص الكاره ويمس بسوء الشخص المكروه الذي لا ذنب له. علينا أن نبدي معاملة إنسانية ومتسامحة نحو كل المخلوقات وأن نطبق القاعدة الأساسية للمساواة بالحقوق والواجبات بين البشر"³.

علينا استخلاص العبر من أحداث الماضي ومن الأخطار الكامنة في بذور العنصرية، التي بإمكانها النفسي في أي مجتمع بشري، وأن تتجذر وتنمي أعشابا برية تنتشر وتبيد كل ارض طيبة. لا ضمان للمجتمع البشري أيا كان، وفي أي زمان ومكان، من عدم تحول شحيرات العنصرية إلى غابة كثيفة. يجب علينا ألا نعتبر نظام الحكم الديمقراطي، الذي يقدر كرامة كل إنسان مهما كان أمراً بديهياً لا يستحق الذكر، التفكير الوهمي بأن "هذا لن

1 اهرون باراك، "حقوق أنسان محمية: نطاق وحدود"، عدالة ونظام أ (1993)، ص. 273-253.

2 استئناف جنائي 2831/95 البيا ضد دوله إسرائيل، ن(5) 221، 287-286 (1996).

3 محكمة العدل العليا 392/72 برجر ضد اللجنة القطرية للتخطيط والبناء، لواء حيفا، ف"د خز(2) 764، 771 (1973).

يحدث لنا" لا صلة له بالواقع، بل قد اثبت التاريخ عكس ذلك⁴. فمثلما أشار وبحق القاضي البروفسور اهرن باراك، "بما أن الأحداث وقعت بألمانيا بعهد (كانت) و(بتوفن) و(غوته)، فمن الممكن لهذا أن يحصل بكل مكان، حتى وإن لم يكن بهذه القوة المرعبة"⁵. علينا فعل كل ما بوسعنا للقضاء على جذور العنصرية في مجتمعنا. وعلى الدولة العمل بكل الوسائل المتاحة لديها لتحقيق القيم اليهودية الديمقراطية كتقبل الآخر وإبراز الموحد والمشارك لكل فئات المجتمع الإسرائيلي.

ولهذه الأمور صلة وثيقة بواقع الحياة بمجتمعنا. وهو مجتمع متنوع، متعدد الثقافات والمبادئ ووجهات النظر. وإن كان للتنوع فوائد عديدة، فإن له أيضا سلبيات، فالفروق بين فصائل المجتمع تؤدي إلى اختلاف بالرأي وانشقاق اجتماعي بين مجموعات مختلفة مثل العرب واليهود؛ اليهود الغربيين (أشكناز) واليهود الشرقيين (مزرهيم)؛ سكان المركز وسكان الضواحي؛ الأغنياء والفقراء. هذه الانشقاقات غيرت وجه المجتمع الإسرائيلي وكونت به مجموعات متباينة ومنفصلة. وقد أشار إلى ذلك رئيس الدولة رؤوفين ريفلين حين قال: "التغييرات الديمغرافية التي تصوغ وجه المجتمع الإسرائيلي من جديد، قد خلقت واقعا إسرائيليا جديدا، واقعا ليس به أغلبية ساحقة ولا أقليات واضحة. واقعا يتألف في نطاقه المجتمع الإسرائيلي من أربعة أوساط، وان أردتم - أربع 'عشائر' رئيسية تختلف جوهريا عن بعضها البعض، ستتقارب أحجامها، شئنا أم أبينا. إن نظام امتلاك المجتمع الإسرائيلي ودولة إسرائيل يتغير أمام أعيننا"⁶.

بواقعا المعقد نشهد بالفترة الأخيرة ظواهر صعبة من الكراهية والعنصرية، والعنف، والانشقاق وعدم التسامح. إن الانشقاقات بين فئات المجتمع الإسرائيلي تغلب الوحدة والتواصل بين أجزائه، بل تحول التسامح وتقبل راي الآخر إلى 'فعل فاحش' في أنظار البعض، كما بات استعمال الألفاظ العنصرية العنيفة، وممارسة التمييز والاضطهاد، وحتى جرائم الكراهية المروعة، أمرا ليس بنادر هذه الأيام. "هوامش متطرفة" - أو "حفنة من الناس"، كما يخلو للبعض تسميتهم، ترفع رؤوسها، في حين باتت وسائل التواصل

4 اهارون باراك، قاض بالمجتمع الإسرائيلي 86 (2004).

5 اهارون باراك، "حقوق الإنسان والأمن القومي"، حقوق لج(1)، 29 (2008).

6 خطاب الرئيس السيد رؤوفين ريفلين، "أقوال رئيس الدولة بمؤتمر هرتسليا بمناسبة قرب حلول الذكرى الأولى لاضطلاعه بمهام منصبه" بيوم 7.6.15.

الاجتماعي أرضا خصبة لنشر كراهية الآخر، وبما ينبئ بأن الخجل قد زال من وجه الأرض. تلك اليد التي تضغط بسهولة على لوحة المفاتيح، تحولت إلى يد تمتد بسهولة لعبلة الكبريت والسكين والمسدس. يعتصر القلب عند رؤية هذه الكراهية والعنصرية التي تعمي عين الإنسان وتقتضم بأسس المجتمع الإسرائيلي وبالقيم اليهودية والديمقراطية.

لدى الدولة وسائل كثيرة للحد من هذه الظواهر الصعبة. لكن الوسيلة الأهم هي التربية.

"قل لي أبي... هل تعتقد بأنني يمكن أن اصبح عنصرية؟"

"من المحتمل أن يحدث هذا؛ كل شيء يتعلق بالتربية التي سنتلقينها... نحن لا نولد عنصريين، بل نتغير لنصبح كذلك"⁷.

من الصعب المبالغة بأهمية التربية وبمركزية جهاز التعليم في القضاء على الكراهية والعنصرية، وتحقيق الحياة المشتركة في المجتمع الإسرائيلي المستقطب. فالتربية والتعليم مكانة مركزية بكيان الدولة، من أجل تأمين حياة اجتماعية صالحة وضمان تحقيق حقوق الإنسان. اجل، "إحقاق حق التعليم أيضا له أهداف اجتماعية، إذ يشكل الحلقة الرابطة بين شرائح المجتمع المختلفة، ويخلق جسرا أساسيا للتجانس الاجتماعي، الذي يضمن استمرارية وجود الشعب والمجتمع؛ التربية هي وسيلة هامة لتعزيز القيم الديمقراطية الحرة، وضمان حياه اجتماعيه صالحه"⁸.

نتائج التقرير المطروح أمامكم تنوه، إلى أن الدولة لا تستخدم جهاز التعليم بشكل كافٍ وحكيم لصنع حلقات تواصل بين كافة أجزاء المجتمع. وزارة التربية والتعليم لم تطبق العناصر الرئيسية للفكر الرائد في مجال التربية بهدف منع العنصرية والتربية على الحياة المشتركة، ولم تتم دراسة منتظمة لظاهرة العنصرية في جهاز التعليم؛ لم تطبق برامج للحياة المشتركة ولم تخصص الميزانيات اللازمة لتطبيقها؛ العمل في هذا الموضوع بكافة أوجهه لم يكن في نطاق مسؤولية وحدة إدارية واحدة مسؤولة عن وضع خطوات تعميم الموضوع على جهاز التعليم؛ لقد كانت عملية إدخال موضوع التربية على الحياة المشتركة

7 طاهر ابن جولان، العنصرية كما شرحتها لابنتي، 12-14، 18 (1998).

8 محكمة العدل العليا 7426/08 طبكا حكم وعدل للقادمين الجدد من اثيوبيا ضد وزيره التربية والتعليم، قطعه 14 من حكم القاضية فروكتشا (نشر في قاعدة بيانات إلكترونيه 31.8.10). حول حق التعليم ومحتوياته الديمقراطية في بورام رابين، حق التعليم 137-145 (2002).

ومنع العنصرية بالمواضيع الدراسية عملية جزئية؛ لم يتم إرشاد المعلمين بخصوص هذا الموضوع الهام ولم يتم إكمال العمل مع الجمعيات والمنظمات الأهلية. هذه النتائج تثير المخاوف من أن "الكلام الجميل" حول أهمية القضاء على العنصرية والتربية على الحياة المشتركة لم يدعمه بأعمال فعلية ولم يتم رفضه بالمضامين اللازمة. لقد امتنعت وزارة التربية والتعليم على مدار السنين عن اتخاذ الخطوات اللازمة لخلق بنية تنظيمية، ميزانية، وبيداغوجية كافية لصنع عمل جهازي فعال للمدى البعيد لمنع العنصرية لدى التلاميذ. في هذه الظروف، يتم طرح الموضوع على جدول أعمال وزارة التربية والتعليم بشكل عشوائي و فقط عند ظهور عنصرية متطرفة وعنيفة وبأيام ذروة خاصة.

إن نقطة البداية، والحق يقال، صعبة، فالانقسام المجتمعي الإسرائيلي ينعكس في جهاز التعليم، الذي يضم ثلاثة تيارات منفصلة: التعليم الحكومي-اليهودي، التعليم الحكومي-اليهودي المتدين، التعليم الحكومي-العربي، وإلى جانبها جهاز التعليم اليهودي المتدين المتشدد (حريديم). هذا الفصل منذ الروضة وحتى الصف الثاني عشر يمنع التعارف بين المجموعات ويقوي العزلة والشك تجاه الآخر أو المختلف، كما أشار إلى ذلك وبحق الرئيس ريفلين: "كل طفل مولود في دولة إسرائيل ينتمي لواحد من أربعة أجهزة مختلفة... طفل من بيت إيل، طفل من رهط، طفلة من هرتسليا وأخرى من بيتار عيليت، ليس فقط أنهم لن يلتقوا – بل وسيتربون على رؤية مختلفة للقيم الأساسية والشكل المفضل لدولة إسرائيل"⁹. التحدي الذي يقف أمام وزارة التربية والتعليم صعب ومعقد؛ بالرغم من أن وزارة التربية والتعليم بادرت بمحاولات للتعامل مع التباين في المجتمع الإسرائيلي، ولكن هذه المحاولات لم تجلب النتائج المناسبة والمرجوة. لذا، يجب عليها "احتساب المسار من جديد".

وكما جاء في توصيات التقرير، على إدارة وزارة التربية والتعليم قيادة جهاز التعليم بشكل فوري، بالأقوال والأفعال على السواء، وعلى امتداد المحور التعليمي، إلى عمل شامل ومكثف، مبرمج، ملزم ومخطط له بموضوع التربية على الحياة المشتركة ومنع العنصرية، فكل هذا مطلوب لإنجاز التغيير في الأنماط السلوكية للتلاميذ، وعلى جهاز التعليم تمرير رسالة واضحة لكل تيارات جهاز التعليم وكل المنخرطين فيه: "إسرائيل هي دولة

9 خطاب الرئيس السيد رؤوفين ريفلين، " أقوال رئيس الدولة بمؤتمر هرتسليا بمناسبة قرب حلول الذكرى الأولى للاضطلاع به مهام منصبه" بيوم 7.6.15.

ديمقراطية منتمية لكل مواطنيها وترتكز على قيم مشتركة لكل أفراد وفئات المجتمع"، كما على وزارة التربية والتعليم تجنيد الوزارات والمجالس المحلية والهيئات ذات الصلة العاملة ضمن السلطات المحلية لمعالجة الموضوع وتنظيم عمل المنظمات غير الحكومية التي تعمل بهذا الموضوع بجهاز التعليم.

ويظهر التقرير أن إنجاز تغيير حقيقي يتطلب القيام بأفعال وضمن تامين الميزانيات المناسبة لكافة برامج مكافحة العنصرية والتربية على الحياة المشتركة لكي تتحقق على أرض الواقع، كما يجب هذه المرة اختبار مدى نجاحها بمقياس واضح وإحداث تراجع ملحوظ وواضح للعيان للمواقف المستندة على الآراء المسبقة المناهضة للديمقراطية وتقليص مظاهر العنصرية لدى الشباب. وكلي يقين أن تنفيذ توصيات هذا التقرير وخطوات وزارة التربية والتعليم الجادة سوف يقرب ولو بقليل حلول اليوم الذي به، كأقوال أنشودة دان ألماغور "لا يتم إهانة أي شخص بسبب عرقه أو لونه".



يوسف حاييم شفير، قاض (متقاعد)
مراقب الدولة
ومندوب شكاوى الجمهور

لقدس، سبتمبر 2016